العمارة العربية الاسلامية
والتحولات الاقتصادية والاجتماعية

الدكتورة خنساء صالح عبد الباقي

« يمكننا لا المطابقة بين المباني والترميمات الواجب القيام بها في الأحياء القديمة فقط، بل كذلك من خلق أسلوب جديد أصيل وعالمي في الوقت نفسه لاقامة الأحياء الجديدة في المدينة العربية »

ـ جاك بيرك ـ

مقدمــة :

يعد هذا « الموضوع » من أساسيات التفكير العربي مستقبلا، نظرا لما سيصادفه المجتمع العربي من مشاكل وضغوطات من جراء حجم التحولات الاجتماعية والتغيرات الاقتصادية التي مر بها خلال القرن العشرين. وعندما نفكر في أبرز ما نحتاجه اليوم في المدينة العربية، فان مسألة التأصيل الهندسي للعمارة العربية الاسلامية تقف تنتظرنا كحاجة ملحة وضرورية، في تحليل ما ورثه المجتمع العربي في مدنه وحواضره... وما هي الا محاولة لاعادة التأهيل الفيزياوي والمورفولوجي لمجموعة من الأساليب والبقايا والموروثات العمرانية التي بقيت صامدة ازاء ضغوطات القرن العشرين ومشاكله وأزماته التي ازدادت نسبتها بحجم كبير جدا عما حدث في القرن التاسع عشر.

ولعل هذه « الورقة البحثية » تلتزم منهجية في الهندسة المستقبلية للعمارة العربية الاسلامية، ومحاولة تحقيق ما لم يكن قد تحقق فعلا في البحث العربي أولا ثم رسم صورة مستقبلية لما يمكن أن يحدث على ضوء التحولات العربية في المدن والحواضر الشهيرة. وسأقتصر منهجيا البحث في الجانب النظري، وتحليل أبعاد المشاكل، وتحديد طبيعة التطبيقات المعمارية ضمن ما جرى في القرن العشرين عربيا، ثم وضع معايير رسم تلك الصورة المستقبلية وطرح بعض المقترحات والاستنتاجات. ولا بد لي أن أشير إلى أن هذه

« الورقة البحثية » لم تشتمل على الجانب العملي بتقديم حصيلة مسوحات ميدانية وتحليلها، نظرا لكثرة الأمثلة والشواهد في المدن العربية التي تتباين في حقيقة الأمر فيما بينها نسبة لمواضعها الجغرافية وواقعها التاريخي.. وأحوالها المعاصرة.

المنهج في الهندسة المعمارية المستقبلية من خلال مفهومين التجديد الحضري الأوربي والتأصيل الهندسي العربي

1 ـ مفهوم التجديد الحضري Urban Renewal Concept :

صيغ هذا المصطلح لأول مرة على يد الاقتصادي الأمريكي ميلز كولين Miles Colean عام 1950. ويحتوي مضمونه على معاني متنوعة وعديدة وفقا للتخطيطات وطبيعة المعضلات التي ازدحم بها القرن العشرين. وقد عرف هذا « المفهوم » من قبل كريبلر Grebler بأنه « مجهودات أو محاولات مدروسة بعناية فائقة لتغيير البيئة الحضرية من خلال تعديل منسق في المدينة لتوفير المتطلبات الراهنة والمستقبلية للحياة الحضرية.. سواء في مركز المدينة أو قريبا منها[1].

أما ميد هيرست ولويس Medhurst & Lewis، فقد عرفا « المفهوم » انه « تهديم للأبنية القديمة على نطاق واسع وبأسلوب يفسح المجال لخطيط وانشاء مجموعات جديدة من الأبنية والشوارع والفضاءات المفتوحة »[2] وقد اقترح كل من ويمر وهويت Weimer & Hoyt عام 1966، مفهوما للتجديد الحضري تحديده ثلاثة أنواع من البرامج :

1 ـ اعادة التطوير Redevelopment (أي : اعادة انشاء المنطقة بأكملها بعد هدمها وازالتها).

2 ـ اعادة التأهيل Rehabilition (أي : رفع مستوى الهياكل دون المعيار إلى معايير مفروضة).

3 ـ الحفاظ Conservation (أي : المتضمن كلا من اعادة التأهيل والازالة الموضعية Spot Clearance.

لقد استخدم مفهوم التجديد الحضري في « الموسوعة البريطانية » للجمع بين البرامج المذكورة لفرض معالجة التلف الحضري والاهمال وازالة المناطق المتهرئة وتطويرها إلى استعمالات جديدة أو محسنة تنفع الحاضر المعماري، وتقيم قاعدة أساسية للبناء الهندسي المستقبلي[3].

2 ـ مفهوم التأصيل الهندسي العربي :

ان ما نعالجه في هذه « الورقة » ليس هو ـ فقط ـ الحفاظ على القديم بحد ذاته أو مجرد العناية به أو معالجة الأبنية المعمارية التاريخية التي خلفتها العصور العربية والاسلامية في

مختلف البيئات العربية بل نقصد به أساسا : تلك العمليات الابداعية والتحديثية التي تحاول ايجاد البدائل المتطورة نحو الأحسن ليس في الاعتماد على ما تكون في مدننا العربية هذا القرن بل ما خلفته كل تلك العصور من النماذج الأصيلة التي قدمت وظائف متنوعة ليس لأبناء جيل واحد فحسب بل لمختلف الأجيال المتعاقبة.

ان التأصيل الهندسي ـ العربي بحد ذاته : عملية تقف في موقع مضاد ليس من عملية التجديد الحضري بل من التقليد الهندسي للعمارة الأوروبية والأجنبية بشكل عام.. على الرغم من الفوائد الواسعة التي جناها المجتمع العربي من تشييدات وعمارات وأبنية. وطرز مختلفة. إذ يبقى العرب بحاجة إلى ما يميزهم في المستقبل المنظور والبعيد وما يميز عمارتهم العربية الاسلامية التي ستختفي في خضم تقاليد عدة لما يجري في العالم مستقبلا. وتبقى نقطة مهمة وأساسية بالنسبة لمستقبلنا العربي ذلك ان العرب والمسلمين مهما قدموا من تقنيات وأشكال وجماليات تقليدية، فانهم لم يبلغوا حالة التسامي وخصوصية المعاصرة ووضوح الشخصية العربية. وعليه فان التأصيل الهندسي هو حاجة ضرورية وملحة لتكريس الدراسات المحلية The Local Studies والتطبيقات على نماذج متعددة طبقا لحالة كل بيئة عمرانية عربية منتشرة في المدن والحواضر التاريخية[4].

ان التأصيل الهندسي لا يكتفي بكل من الدراسات والتطبيق لما هو قديم بل استنباط المفاهيم والمعاني والأسس التي تكمن في النتائج والاستنتاجات بما ينسجم وكل حالة أو بيئة معينة ومحاولة تخطيط وتنفيذ ما يمكن الأخذ به من التخطيطات لكي تكون تأسيسا في التطوير نحو الأحسن وادخال ما هو ضروري من خدمات وتحويرات داخلية على الأبنية المعمارية التاريخية كي تنسجم والتبدلات الوظيفية التي يراد لتلك الأبنية كان يعادل النظر ـ مثلا ـ في أساليب التهوية والاضاءات والتقسيمات والمنافذ والنوافذ والفناءات الداخلية والمواد البنائية والأغراض الخدمية... الخ[5] وعليه فان الموروثات المعمارية العربية تختلف في أصالتها عن الموروثات المعمارية الأوروبية ! فكيف سنعالج ذلك ؟

طبيعة التلون التاريخي لموروثات العمارة العربية الاسلامية

ان موروثاتنا المعمارية العربية ـ الاسلامية متنوعة في بيئاتها وألوانها التاريخية وان صورها النهائية التي وصلتنا في القرن العشرين تتشكل من جماليات متعددة أنجزتها أجيال الأجداد الماضية وقد تصرفت ببعضها أجيال الحاضر المتنوعة ضمن التحولات وخصوصا بعد تكوين الدول العربية المعاصرة خلال هذا القرن فالمطلوب أولا وقبل أي شيء آخر : تأصيل تلك الموروثات المعمارية وتوظيفها لخدمة الأجيال المقبلة. ان التنوع التاريخي الزمكاني لتلك الموروثات ينقلنا إلى نماذج جمالية وهندسية في أكثر من مدينة عربية (أو عدة مدن) في اقليم معين له نكهته التي يتسم بها إذ تتجسد الجمالية والمورفولوجية الهندسية الأموية في بلاد الشام، وهكذا أيضا بالنسبة للعمارة والطرز

الأندلسية في الأندلس، والعباسية في العراق، والأيوبية والمملوكية في مصر، والزيدية في اليمن، والحفصية والحسينية والموريسكية في تونس والمراكشية في المغرب الأقصى... الخ[6].

وقد تناثرت في خضمها جمعاء المؤثرات العثمانية أيضا أو الآسيوية والأفريقية والأوروبية.

ان هذا الانتماء التاريخي الموحد في خصوصيته والتنوع في تشكيلاته وجمالياته يشكل في حد ذاته أحد أبرز المقومات الأساسية والارتكازية في الأصالة الهندسية المعمارية، التي لم تزل شواهدها شاخصة ليس في ملامحها فحسب، بل فيما تركته من آثار وبقايا والتي تشكل بحد ذاتها : ثروة قومية للأمة العربية، وعلى الأخص في الحواضر وأمهات المدن العربية، بل ويتجاوز الأمر ذلك إلى ان هذه الثروة المتنوعة والأصيلة تشكل أحد أبرز الظواهر في استمرار حياة الشخصية العربية وديمومتها في المستقبل.

ولكن ؟

تعدّ المواريث التقليدية والتاريخية القديمة في المدينة اليوم، في حالة صعبة وخطيرة من التلف الحضري Urban Blight كظاهرة تعاني منها أغلب مدن العالم[7]، بسبب كثرة ما تعانيه من المشاكل والضغوطات الناتجة التي تعرضت لها خلال القرون والأزمات الماضية، وما تعرضت إليه اليوم من تغيرات أدت إلى تهديدات حضرية وتهرؤات فيزياوية.. أدت بالضرورة إلى اختلال التوازن بين الحياة التقليدية لتلك المواريث العمرانية وبين متطلبات الحياة المعاصرة لصياغة توجهات المستقبل.

كما أدى فقدان السيطرة على عوامل التغيير (في القرن العشرين خصوصا) والتي تفاعلت وتمت بشكل قفزات نوعية سريعة وبطريقة لم تتمكن المدينة العربية القديمة من استيعابها أو تمثلها.. مما نتج عنه : ضمور وتلاشي للشخصية الحضرية لها، وعلى الأخص في مدن المشرق العربي... وقد كانت الاستجابة لتلك المشاكل والضغوطات تعكس النظرة الحديثة إلى ان المدن العربية القديمة « العوامل » الخطيرة : الهجرة من الريف إلى المدينة / التوسع الديمغرافي العربي / الانبهار بالتقدم العمراني الأوربي / الوسائل الخدمية الحديثة / المواصلات وسرعة التنقلات... الخ.

ومن الغريب في التحليل المقارن، ان الاختلافات التي ظهرت في المدينة العربية، كانت متنوعة ومتعددة سواء في التخطيطات أو التقسيمات أو الأبنية والعمارات أو الطرقات... الخ، إذ كانت تلك « الاختلافات » واضحة المعالم بين المدينة العربية القديمة وبقاياها في المشرق العربي منها مما هو عليه هال بقاياها في المغرب العربي، فلقد

اقحمت معاول الهدم في أجزاء واسعة من مدن المشرق العربي القديمة لكي تبتلعها التشوهات الحديثة... في حين تساوقت المدن الجديدة إلى جانب المدن القديمة كي تجاورها وتتلاحم معها، فترعاها ولا تتجاوز عليها في مدن المغرب العربي إلى حد كبير (وأقصد بلدان : تونس والجزائر والمغرب الأقصى).

تباعد الخصائص والتراكيب بين المدينة العربية والمدينة الأوربية

لم تكن المدينة العربية القديمة تعرف الشوارع العريضة والمناطق الفسيحة بل تميزت بأزقتها الضيقة وحاراتها القليلة وبعض الساحات إذ يتدافع فيها العمران والبيوت والمساجد والقبور والأسواق والحمامات والدوائر الرسمية وقصور الحكام... ككيان فيزياوي بنيوي متكامل له خصائصه التي استوعبها القدماء منذ العصور الوسطى(8)، وقد اختلفت في ذلك عن المدينة الأوربية القديمة التي عرفت بشوارعها العريضة ومساحاتها الواسعة التي تتناثر فيها العمران والوحدات السكنية والأسواق والمدارس وكليات اللاهوت والكنيسة والمقابر دون أن تؤثر على أغلبها منتجات الثورة الصناعية في القرنين الماضيين. فقد احتفظت المدينة الأوربية بشكل عام بكامل موارثيها العمرانية القديمة سوا شوارعها أم أبنيتها المطلة على تلك الشوارع أم دواخلها الكلاسيكية وان التوسع العمراني لم يكن مقحما مع تلك المواريث الأوربية، بل مكملا لمورفولوجياتها المتنوعة ولم تكن تلك المواريث الأوروبية ذات قيمة كبرى ثقافيا وحضاريا فحسب بل لم تزل تمثل في أغلب المدن الأوربية القديمة (الصغيرة Towns، والكبيرة Cities) تراثا سكنيا وعلميا أكاديميا واقتصاديا تجاريا مهما إذ انها لا تزال تشكل جزءا مكملا لرصيد السكن المعماري للدول الأوربية كما وتشكل عدة مرافق معمارية قديمة كالأسواق والحوانيت وغيرها رصيدا اقتصاديا مهما في كيان التحضر الأوربي(9).

هكذا تختلف المدينة العربية عن المدينة الأوروبية في جميع خصائصها وسماتها ونسيجها الحضاري وقيمتها الثقافية ووظيفتها الاقتصادية فما أصاب المدينة العربية من تلف حضاري لم يصب المدينة الأوروبية، فضلا عن الانحدار أو الانهيار للمستوى النوعي للوحدات التقليدية القديمة من عمارتها... أو ما ازدحمت به المدينة العربية من التغيرات السريعة والاجراءات غير المنظمة نتيجة لطبيعة التفاعلات المعقدة في القرن العشرين.. وما لحقها من مظاهر التدهور الاجتماعي والفيزياوي (أي : الاختلال في التراكيب الاجتماعية والاقتصادية العربية للمحتويات البشرية) ازاء تلك الموروثات العمرانية التقليدية ـ القديمة، مما أدى إلى تدهورات فيزياوية للوحدات التراثية الأصيلة المكونة لذلك النسيج العمراني.

ولكن كيف حدث ذلك ؟

لقد ابتعدت الخصائص الاجتماعية والاقتصادية (ويضمنها الأساليب الثقافية والمعاشية) للمجتمع العربي عن الخصائص العمرانية للنسيج الحضري في المدن سواء على مستوى العيش أو الخدمات.

مؤثرات القرون المتأخرة (والتاسع عشر بشكل خاص)

صحيح ان التطورات الموسعة في العمارة العربية قد ترافقت مع نمو المدن العربية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعض عوامل تاريخية أذكر منها :

1 ـ القوانين العثمانية (وخصوصا قانون البلديات والمجالس البلدية)، إذ طرأت تحسينات كبيرة على العمارة العربية، منها : تجديد بعض الأسواق والأبنية ومرافق الصحة والبريد والانارة والمواصلات والمقابر والمعابر والاسالة والمذابح والمقاهي والملاهي والفنادق والمجاري والحدائق والمساجد والكنائس.. الخ فكان ان ظهرت عدة تجديدات معمارية مؤثرة لها هندستها المؤصلة[10].

2 ـ الوجود الأوربي الفرنسي والبريطاني في بعض المدن العربية منذ القرن التاسع عشر وكان له تأثيره الأساسي والوحيد في تأسيس المدن الجديدة المتاخمة إلى المدن القديمة فدخلت لأول مرة ولم تزل المؤثرات الأوربية واضحة في أجزاء واسعة من المدن العربية.

3 ـ تطور بعض الدول العربية في تلك المرحلة التاريخية كالدولة الخديوية في مصر، والدولة الحسينية في تونس والسلطنة العلوية في المغرب الأقصى.. إذ شهدت المدن العربية في مثل هذه « الكيانات » تطورات كبيرة في العمارة الهندسية، وبرزت للوجود نماذج هندسية جديدة من الأبنية لم تكن معروفة سابقا كالمسارح والفنادق والصلات والقصور والحدائق والمكتبات والمدارس... الخ[11]

دعونا نعمد اذا إلى التحليل المقارن لبعض موروثاتنا التاريخية في بعض حواضرنا العربية الشهيرة.

ان ما أريد التأكيد عليه من خلال عدة تجارب هندسية ـ ميدانية وعدة قراءات واستشارات تاريخية ونماذج أساسية وحية من بقايا الموروث المعماري ـ العربي الاسلامي ـ.. الوصول إلى مبدأ عربي في التخطيط العمراني القائم على أساس الوحدة التركيبية الحضارية والتخطيطية لمستقبل عمارتنا العربية، وذلك ان الذي أصاب عمارتنا العربية ـ الاسلامية في الصميم : تلك الاجراءات الكيفية في التوسعات المعاصرة التي إكتسبت صفة « العشوائية » للعديد من الحالات في مراكز مدننا وحواضرنا التي لم تزل تمتلك في الحقيقة « تاونسكيبات » تاريخية خلفتها العصور السالفة بنماذجها المتعددة والمتنوعة في القرن العشرين. انما تعرضت له تلك الموروثات الأصيلة من مخاطر في هذا القرن بتحولاته الاقتصادية والاجتماعية هو أكبر بكثير جدا مما طرأ عليها من مخاطر تعرضت لها على امتداد تراكيب الزمن الحديث ؟ أقصد.. خلال القرون الأربعة الماضية.

بمعنى، ان التلف الحضري اليوم كان أقسى على موروثاتنا كثيرا من كل الأزمان التي بقيت مجتمعاتنا في بيئاتها القديمة مستخدمة لها بصورها التقليدية وأنماطها المتجددة في داخلها، محافظة على ملامحها النهائية رغم قدمها في اطار التاونسكيب والتي لم تقتصر تنوعاتها ضمن البيئة المكانية المحددة لها. بل تعدديتها ضمن كل حقبة أو عهد تاريخي وظفت العمارة في فجواتها أو فجواته الزمانية.

الحصيلة التاريخية : التنوع والتعددية : الخصوصية العربية

هكذا، نعلم بأن حصيلة التنوع والتعددية في العمارة العربية ـ الاسلامية لأية مدينة عربية، يشكل قاسما زمكانيا له انتماءاته الموحدة في اطار شامل لموروث الأمة العربية.. دعونا نذكر بعض الشواهد والأمثلة عندما ننتقل في مجال التحسس البيئي لمدينة بغداد مثلا، فالشواخص العباسية لم تزل بقاياها منتشرة في المدينة التي عاشت أحقابا زمنية متعددة، كانت تزاول وظائفها العمرانية بمختلف مضامينها وجمالياتها على امتداد ألف سنة، وعلى الرغم مما حدث في المدينة من تجديدات واضافات عثمانية مثلا[12]، إلا أن بغداد (العباسية + العثمانية) قد تعرضت في عمارتها الموروثة إلى تلف حضري منذ اربعينات هذا القرن أكثر بكثير مما أصابها على امتداد ألف سنة !

ونحن نجوس في « حواري » القاهرة، نتلمس الطرز المعمارية المتنوعة، (الفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية) وبمختلف أشكالها وأنساقها ونسيجها البنائي المؤثر في السايكولوجية العربية (وخصوصا من خلال وسائل الاعلام كالأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية).. تلك الطرز المصرية الأصيلة التي نالت منها كثيرا مخاطر ذلك التوسع الرهيب والتلف المخفيف وسقوط البيوتات القديمة في تضاعيف القرن العشرين.. إذ كان من أبرز الأحداث المؤثرة الهزات الزلزالية التي منيت بها مصر مع الأسف عام 1992، فضلا عما خلفته ولم تزل موجات الزيادة الديمغرافية للسكان والتي أطبقت بشكل مخيف على مدينة القاهرة القديمة.

انه الأمر نفسه أو شبيهه في بقية أمهات المدن العربية التي تنقلنا مكانيا في بيئاتها المتنوعة، وتحسّسنا حجم التأثير واسع النطاق على الموروثات المعمارية العربية التي من الصعوبة توفر مثل أنواعها وانساقها ونظمها المعمارية وتراكيبها الهندسية وأشكالها الجمالية لدى أمم أخرى.

المؤثرات الأوروبية المباشرة

لعل أبرز المشاكل التي عاشتها تلك البنى والانساق المعمارية في المدن العربية، والتي ولدتها جملة واسعة من تحولات المجتمع العربي وتوسعاته الديمغرافية

وسلوكياته الاقتصادية والسايكولوجية... وتطلعاته الثقافية المتأثرة بأوربا بشكل خاص... فضلا عن السياسات البلدية ـ المحلية التي ساهمت في اندفاع مجرى التحولات نتيجة لحالة الانبهار والاعجاب منقطع النظير بالمدن الأوروبية منذ القرن التاسع عشر وعلى امتداد عقود القرن العشرين. بل وساهم الأوربيون أنفسهم سواء كانوا من الفرنسيين أم الانكليز أم الطليان أم الإسبان إبّان تواجدهم في ربوع المدن العربية الحضرية... ساهموا من خلال حالة القطيعة بينهم وبين سكان تلك المدن العتيقة في تأسيس قطيعة عمرانية لبعض المدن العربية بابقاء المدن القديمة على أوضاعها كما هي بسكانها وأزقتها وأسواقها وتخمتها الديمغرافية، أو قضمها وبناء مدن مجاورة لها أو متلاصقة معها على النسق الأوربي[13].

من يتنزه اليوم في شوارع عربية شهيرة سوف يتحسس حجم تلك « المؤثرات » على حياة العمارة العربية الاسلامية، وربما يشعر المرء بالنشوة ويشبع رغبته ويمتع نفسه عندما يخترف صباحا أسواق تونس القديمة ويستلهم تراثه حينما يستظل بجدران جامع الزيتونة ونكهة الأسواق المحيطة به... ولكن سيتملكه احساس من نوع آخر له نشوته ومتعته حينما يتنزه مساءا في شارع الحبيب بورقيبة بعماراته الحديثة بطرزها الفرنسية وفناءاته الواسعة.. وهذا هو الحال نفسه لدى أي انسان عربي ستغدو له انعكاساته السايكولوجية عندما ينتقل في أحياء سيدي الهواري العالية بمدينة وهران القديمة، أو يحتسي قهوته في مقهى السنترال بمدينة وهران الحديثة[14].

ان ما أحدثته المؤثرات الأوربية المباشرة كان كبيرا جدا على طبيعة العمارة العربية الاسلامية نفسها قبل الانسان... ولعل التخطيطات العمرانية التي زاولها الفرنسيون والانكليز لبعض المدن العربية وخصوصا في مصر ولبنان وبلدان المغرب العربي كانت في مقدمة أعمالهم. وكانت تلك التخطيطات ولم تزل حتى يومنا هذا ناجحة في تنفيذها وكفوءة في وظائفها على امتداد قرن كامل. وكان الاحتكاك بأنماط الثقافة الأوربية والممارسات الغربية الجديدة كبيرا وضمن أساليب استعمارية، وتبشيرية، ودبلوماسية، أو رحلات جغرافية أو بعثات طلابية.. هكذا بدأت ميول الناس تتحول شيئا فشيئا، وبدأوا يفضلون الطرز الأوربية، وتحول الاهتمام نحو المناطق الجديدة والمتاخمة بعيدا عن المراكز التقليدية القديمة، ولم ينحصر الأمر بذلك فقط، بل نبذت كل الموروثات المعمارية القديمة عندما غدت الحداثة المعمارية مقترنة بحالات التغريب Westernization. وعليه، فان الأقطار العربية التي حكمها الأوربيون مباشرة، شهدت حركة كتلية Mass Movement للأقليات الدينية والفئات الأسرية الغنية (= الارستقراطية العربية) للتحرك نحو الضواحي والمدن الحديثة (المتاخمة) كي تعيش في احياء عصرية مشيدة بيوتاتها وقصورها على الطرز الأوربية، ثم التحقت بها تلك العناصر المتحركة التي كانت تتأمل الاتصال بالقرب منها ومن الفئات الأوربية الأجنبية[15].

الموروثات المعمارية المضافة

لعل الطرز المعمارية الأوربية والأبنية ذات الجماليات المختلفة في بعض المدن العربية، هي حلقة مضافة إلى الموروثات العربية التي يمتلكها العرب اليوم في العديد من مدنهم، وخصوصا في مدن مثل : الجزائر وتونس ووهران وكازابلانكا والرباط وطرابلس والقاهرة وبيروت وطنجة... وستغدو مع توالي الأيام والشهور والسنين ميراثا مركزيا في التاونسكيب الحضري العربي، مطلوب الحفاظ عليه، والاعتناء به وبأبنيته التاريخية المنسجمة مع مرحلتها التاريخية، وكجزء من ميراثها كالعمارات السكنية والمدارس والفنادق والمحلات التجارية ومحطات القطار والتراموای والصالات والمسارح ودور السينما... الخ إذ سيغدو هذا التنوع الأوربي في اطار التاونسكيب العربي الاسلامي ظاهرة طبيعية لها جماليتها ومورفولوجيتها، وعلى غرار ذلك التآلف الاجتماعي والسايكولوجي العربي الذي استمر طويلا بجملة عواطفه وتحسساته البيئية مع الأنماط التركية ـ العثمانية في أغلب المدن العربية التي نجدها متجسدة في أبنية شاخصة للعيان لم تزل واقفة حية في مناطقها المعينة والمشهورة في آن واحد، وهذا ما نلحظه في أحياء مدن عربية شهيرة، أمثال : حي القصبة بالجزائر العاصمة وحي الوزيرية ببغداد والسليمانية في دمشق والسراي في الموصل... الخ.

العمارة العربية الاسلامية في القرن العشرين

آثار التحولات الاقتصادية والاجتماعية :

جرت على امتداد عقود القرن العشرين، خصوصا بعد الحرب العالمية الأولى والبدء بتأسيس عدة دول عربية... جرت عدة تحولات اقتصادية واجتماعية نتيجة لمشروع كل دولة عربية وتطبيقات كل واحدة منها للنظام السياسي والحكومي الذي اختارته لها... أما الذي يهمنا من ذلك كله هو : حجم الأخطار والتهديدات التي أخذت تؤثر سلبا على البيئات الحضرية العمرانية العربية القديمة بشتى صنوفها وأنماطها، أذكر منها باختصار :

1 ـ عدم ملائمة معظم الموروثات العمرانية العربية للاستعمالات الوظيفية المعاصرة، نظرا للتطورات الحاصلة في الوحدات والقسمات الاجتماعية، فضلا عن تطور الوسائل والآليات والأدوات والمنتجات الصناعية والتكنولوجية.

2 ـ التحول من نظام العمارة في الأزقة والحارات والمنعطفات إلى نظام فتح الشوارع الذي بدأ يخدم المجتمع في جوانب أساسية ثلاثة :

أ ـ المرور ومشاكله بتحرك العربات والسيارات في مجال مكاني عريض.

ب ـ اقامة المحلات التجارية والوظيفية التي تطل على تلك الشوارع الفسيحة.

ج ـ النظام الأوربي في هندسة العمارة السكنية (= الشقق) أو بيوتات مستقلة واسعة مع حدائقها (= الفيلات)[16].

3 ـ فرضت المساحات الواسعة للشوارع والمحلات والمساكن والفنادق حالة التجاوز على المواريث المعمارية العربية.

4 ـ التبدلات للوحدات الاجتماعية التي تقطن الوحدات السكنية الموروثة... وفقدانها لصيانة تلك المواريث المعمارية.

5 ـ انعدام الوعي الثقافي والاجتماعي بشأن العمارة العربية ـ الاسلامية وضرورة صيانتها والحفاظ على جماليتها وأنماطها.

6 ـ التبدلات في القوانين والتعليمات المعاصرة فيما يخص الأراضي والعقارات... فقد اضرت كثيرا، بالموروث المعماري العربي، ووقوعه تحت طائلة من المضاربات والسمسرة الاجتماعية نتيجة لضغوطات القوانين، وسرعة تبدلاتها على المجتمع.

7 ـ العشوائية المفرطة في استخدامات الأرض سواء ضد طبيعتها، وضد ما يجب أن تكون عليه، وتباين المساحة، وقد اختفت (وستبقى هذه الحالة ملازمة لحياة العمارة العربية) سياسة التنطيق الوظيفي Functional Zoning policy[17].

8 ـ التخطيطات المعاصرة غير المتجانسة للمدن العربية، بالتعويل على تصاميم لا تتلاءم وخدمة سكان تلك المدن بتحقيق تلك « التصاميم » للغاية الرئيسية، دون الأخذ بمبدأ « اعتبار المدينة هيكلا انسانيا له مقوماته الاقتصادية والعمرانية بما يعكس تطلعات وحاجات المواطنين »[18].

9 ـ لقد كانت التغيرات الاقتصادية والاجتماعية قد حدثت ولم تزل تحدث بشكل قفزات سريعة وبمقاييس آنية، فلم تتكامل مع الهياكل الحضرية ـ المدينية التقليدية ولا مع الأطر العامة لشخصية كل مدينة عربية تبلورت على مدى قرون من الزمن[19].

10 ـ ان النمو الحضري ـ المديني هو حالة تمر بها جميع بلدان العالم وبشكل مألوف متضمنة عدة مظاهر، تشكلها زيادة مضطرة في اعداد السكان والتوسعات الديمغرافية البالغة سواء في المراكز التقليدية للمدن أو في المراكز الحضرية الجديدة والنامية، وعليه فانه مع توالي الأيام تتوسع الظاهرة العمرانية نتيجة استخدامات الأرض الحضرية[20].

11 ـ ولقد شهدت المدن العربية نموا حضريا بمعدلات عالية، فاذا كان قد استغرق حوالي 150 سنة بالنسبة للعالم المتقدم بتطوراته التدريجية، ليغدو بالصورة التي

هو عليه اليوم، فان ثمة قفزات كبيرة قد لحقت بمعظم المدن العربية في العقود الثلاثة الأخيرة، وذلك لعدم انتظام النمو السكاني وتوزيعه بزيادة السكان 5 % سنويا وتناقص الوفيات 1 % نتيجة لحالة التحولات التي شهدها العرب بعد الحرب العالمية الثانية[21].

12 ـ انشطار المجتمع العربي في بيئاته المتباينة إلى شطرين اجتماعيين أساسيين :

أولهما : ثري بموارده (البترولية خصوصا)،

وثانيهما : فقير في موارده.

... فكان ان أثر هذا الانشطار على مظاهر احياء المدن العربية ماديا ودلاليا.. سيمنتيكيا بل وعلى الهندسة المعمارية العربية وعلى الأذواق وفنون البناء. ومن الصدف التي تثير الغرابة ان الدول العربية غير البترولية قد اهتمت بالسياحة ومرافقها، فكان لا بد لها أن تهتم بعمرانها الجميل في حين كانت الدول العربية ـ البترولية غير مهتمة بالسياحة ومرافقها فكان عمرانها أقل شأنا وأضعف دلالة[22].

العرب وخصوصياتهم المعمارية بين التاونسكيب واللاندسكيب :

كان المجتمع العربي في أغلب المدن العربية قد استخدم اللاندسكيب مجالا جغرافيا يتحرك فيه (أو رئة طبيعية يتنفس من خلالها) التاونسكيب الذي يترسخ فيه منذ أزمان بعيدة، فتطور كل من المجالين بتضاريسهما الكنتورية ظاهراتيا ضمن انساق متوازنة بين مورفولوجية العمارة العربية ـ الاسلامية في التاونسكيب وجيمورفولوجية الطبيعة البيئية (= الخضراء) في اللاندسكيب سواء كان ذلك في المدن النهرية كالموصل وبغداد والقاهرة ودمشق والبصرة... أو المدن الساحلية كبيروت والاسكندرية وتونس وطرابلس وكازبلانكا.. أو المدن الجبلية كعُمان ومسقط وقسنطينة ووهران ومكة وصنعاء.. أو المدن السهلية ـ الداخلية كحلب وفاس وتلمسان واربيل وكركوك وحمص وحماة والقيروان.. وجميعها تختلف عن المدن الصحراوية العربية التي لم يكن لها تأثير واضح في تطور الحضارة العربية ـ الاسلامية الا كمحطات ترانسيت وتوقف للقوافل التجارية حسب مواقعها الاستراتيجية على المسالك التجارية، والتي لم يستطع بعضها مقاومة الحياة بعد انقطاع تلك القوافل باكتشاف بعض الممرات والقنالات البحرية... فماتت واندثرت، مثل : سجلماسة والحضر وتدمر وغيرها[23]، في حين تراكمت النماذج عبر الزمن في الوحدات المكانية لبقية المدن الأخرى، وتكثفت مورفولوجياتها وعناصرها المادية والبشرية التي بدأت تفتقد شيئا فشيئا في القرن العشرين. لكي تتحول معالمها الثمينة جدا إلى أطلال ومندثرات، وعندما تكون محظوظة جدا، فانها تبقى شاخصة للمتعة والسياحة والافتخار ومثار اعتزاز في أبنيتها وألوانها وجمالياتها المنظورة ليس إلا !

هكذا إذا، تبقى الحاجة العربية ملحة اليوم وغدا إلى ترتيب ما يجب الحفاظ عليه من الموروثات العمرانية المتكتلة تاونسكيبيا أو المتفرقة لاندسكيبيا، قبل أن تمتد إليها التحولات المقاومة لها بكل ما تحفل به من تداخلات رهيبة وانشطارات مريعة بفعل تزايد الحجوم الديمغرافية في المدن العربية، وازدياد هجمة النازحين من الريف المتاخم والبعيد نحو المدن ودواخلها بحثا عن أماكن للعمل أو اللهو أو المعيشة.. فتتراكم الخطايا بحق الموروثات الأصيلة التي خلفها أبناء المدن القدماء عبر أجياليهم، وستصاب المدن العربية بعمليات تحوير لا ينسجم والمناداة بحلم الفضاء العمراني ذي التكوين المورفولوجي العربي الأصيل الذي تنشده.

نتائج التحولات في القرن العشرين

لقد ثبت لنا من خلال دراسة حالة التبيؤ والتحولات الاجتماعية التي جرت بعد تلك التغيرات الاقتصادية (الزراعية / التجارية / الصناعية / الخدمات) والتي تبلورت بعد التبدلات في الأنظمة السياسية والادارية والقانونية والبلدية / المحلية في عدد كبير من البلدان العربية : ان الوظائف التي لازمت حياة الانسان وديمومة المجتمع العربي سابقا، قد تقاطعت مع النتائج المريرة التي أفرزتها مجموعة تلك (التبدلات ــ التغيرات ــ التحولات) في القرن العشرين وبعد بروز التكوينات السياسية والوطنية العربية المعاصرة بعد الحرب العالمية الأولى أو الحرب العالمية الثانية (لأن : ما جرى في القرن التاسع عشر كان أكثر ترتيبا، لحالتي التاونسكيب والاندسكيب ببروز مدن جديدة إلى جانب المدن العريقة (ومن أمثلتها : ما تأسس على أيدي المعمرين الفرنسيين في الجزائر، أو ما تأسس من احياء جديدة على الانساق الأوروبية في نهايات القرن التاسع عشر في المدن المصرية كالقاهرة والاسكندرية، أو المدن التونسية كتونس والمنستير أو المدن المغربية كطنجة وكازبلانكا ...).

ان أقسى ما عاناه التاونسكيب العربي في القرن العشرين هو : التبدلات الواسعة في أنظمة الشوارع والأرصفة التي صاحبتها موجات تدميرية لمخلفات يصعب الان وبعد مرور عقود طويلة من الزمن، تمييز معالمها العربية الأصيلة التي كانت عليها، وقد تحولت اجزاء واسعة من مدننا (خصوصا في المشرق العربي) إلى احياء مهجنة ضمن معالم ذات تداخلات فوضوية في المنظور والأشكال والأحجام والألوان ... وهي معالم لا انتماء عربي ـ اسلامي حقيقي لها. وعليه فان عمليات الامحاء والتدمير المتواصلة هي منتجات للتحولات الرديئة التي صاحبت مجتمعاتنا التي لم تمتلك الوعي الهندسي المعماري حتى يومنا هذا عن مدى الخسارة التي لا تعوض ابدا : خصوصا وان ثمة تخصصات (ورسائل جامعية عربية وأجنبية) بدأت تثمن تلك الانماط المعمارية النادرة، ودعوتها إلى الاتجاه لاحياء ما تمّ ـ تدميره من المواريث الهندسية والجمالية العربية

الأصيلة. السؤال الان : هل بمقدور العرب اليوم ان ينفذوا بجدارة التخطيطات والرسوم والتنظيرات المستلهمة لتلك الأنماط ؟ فضلا عن بيان الكلفة الكبيرة التي تحتاجها عمليات البناء والتنفيذ ؟!.

التحليل المورفولوجي
من خلال تباين التانسكيب واللاندسكيب :

هو الوسيلة العلمية التي تمكننا من استيعاب المشاكل والتعقيدات التي خلفتها مجمل التحولات في أكثر من بلد عربي زاخر بمكوناته المعمارية وارثه التاريخي في الهندسة المعمارية .. بل وان نتائج هذا التحليل ستمكننا لا محالة من مجابهة بعض التحديات المعاصرة، وستفتح السبل أمامنا ليس لمعالجة واصلاح البيوتات القديمة والأبنية الموروثة والجدران المهدمة والأزقة والأسواق ... وما شابه ذلك (إذ لا تفيد المعالجات والترقيعات والاصلاحات والترميمات الا للأماكن المهمة جدا كالقلاع والمساجد والجوامع والمنائر والكنائس والأديرة والقصور ... الخ التي بقيت وستبقى من الشواهد الأصيلة التاريخية على عظمة العمارة العربية الاسلامية) .. وهذا ما لم نكن نتقصده في مثل هذه « الدراسة »، بل ان التحليلات المورفولوجية ستفتح أمامنا السبل لتحديث الهندسة المعمارية ـ العربية وممارسة التخطيط الحضري الذي يستفيد أساسا من المواريث العربية في خلق جماليات جديدة والاستفادة من وظائف خدمية استخدمها الأولون، فضلا عن تأسيس مرتكزات عربية لها ثوابتها في عمليات ابداعية ستخدم لا محالة متطلبات المستقبل العربي. كما وتسعى الباحثة أيضا إلى رؤية مستقبلية والمحاولة في تجسيد حلم عربي له غزارته في التطلعات والمعطيات كي تجد الأجيال العربية القادمة في مراكز مدننا القديمة أو الحديثة في فضاء جديد له خصوصيته الهندسية وجمالياته وتخطيطاته ومجالاته المتميزة مقارنة بما ستكون عليه فضاءات الشعوب الأخرى.

ان حلم الوصول إلى فضاء نموذجي (عربي ـ اسلامي) في العمارة ليس من السهولة تحقيقه أو التوصل إليه ـ ولعل هذه « المحاولة » الأولية تشكل بداية في اكتشاف بعض السبل ليس في الحفاظ على تاونسكيبات المدن العربية الموروثة تاريخيا، بل في تحديد المسارات الآتية :

1 ـ رسم صورة اللاندسكيب الحضاري العربي ـ الاسلامي الموحد.

2 ـ بلورة المفاهيم الجديدة من خلال المعالجات العلمية في أقسام الهندسة المعمارية العربية على شكل رسائل أو اطروحات أو بحوث ميدانية وتخطيطية وتطبيقية للموروثات المعمارية العربية.

3 ـ الافصاح عن الحاجات الاجتماعية ذات الأبعاد الزمكانية ـ الحضرية العربية (أي : التاريخية والبيئية) في بناء التخطيطات الجديدة.

4 ـ محاولة ترسيخ مبدأ القطيعة (أو القطائع) بين الذي يرنو إليه العرب من فضاءات معمارية مستقبلية وبين الممارسات والتخطيطات التقليدية من طرف والأوروبية من طرف آخر.

5 ـ ترسيخ مبدأ توظيف التاونسكيب التاريخي العربي بعد فهمه من خلال تقسيماته وتصنيفاته الزمكانية. بما يخدم حاجات العمارة الحديثة والمستقبلية من النواحي الاجتماعية والبيئية والمناخية والاقتصادية والمعيشية والدينية والثقافية[24].

6 ـ معالجة السلبيات والخطايا العربية التي ازدحمت بها المدن العربية في القرن العشرين سواء على حساب المراكز القديمة والمواريث المعمارية الأصيلة، أم في التخطيطات « الحضرية » العشوائية التي أضرت بالمصالح التاريخية للمدن وخصوصا ما جرى فيها من تحويرات وخروقات وتدميرات في مركزية التاونسكيب أولا، ثم حدوث ذلك الاضطراب والخلل والاستيطان المهجن والتداخل وانعدام الهارمونية في القياس والتناظر والتناسق والألوان في اللاندسكيب .. إذ ان ما كان يصلح في التاونسكيب العربي عبر عصور التاريخ لا يصلح بالضرورة في اللاندسكيب العربي في القرن العشرين.

ولكن ؟

7 ـ لقد وفرت الطرز الحديثة والأنظمة الحضرية والهندسة المعمارية انفتاحا في الواجهات والنوافذ والاطلالة والشرفات .. لم تكن موجودة في المدن التاريخية، إذ كانت الأبنية القديمة منغلقة على نفسها داخل جدرانها السامقة ونوافذها العليا الصغيرة .. وربما تتم الاستفادة من الطرز المعمارية القديمة في عمليات عدة ضمن اطار اللاندسكيب شرط ان يلتفت العرب إلى الطرز الحضرية الحديثة للاستفادة منها في التوسعات العمرانية في اللاندسكيب[25].

تشخيص التقاطع بين اللاندسكيب الحضاري والتاونسكيب التاريخي

للاجابة عن مجموعة التساؤلات والطروحات التي قدمناها آنفا، والتي تشخص حالة التقاطع المذكور أعلاه، ذلك ان جملة المشاكل والتعقيدات التي تعاني منها حياتنا المدينية العربية اليوم وبشكل متفاوت، انما تحتاج إلى معالجات مكيفة وحكيمة قبل ان يمضي هذا القرن بكل ما حفل به من مخاطر وجنايات والتي ستترك تراكماتها ثقلا مأساويا على طبيعة حضارتنا العربية في مجال الفنون المعمارية وجماليات الموروث الهندسي. وعليه فان أول ما يمكن ملاحظته في عملية تشخيص التقاطعات :

1 ـ منظور المدينة العام في التطوير المعماري العربي، والقضاء على التشوهات والانكسارات في البنى الموروثة.

2 ـ ملاحظة حالات التطوير النسبي لمجتمعنا العربي المعاصر. ودراسة احتياجاته ومتطلباته البيئية والمحيطية فضلا عن تأثره واندماجه في رهان العصر الحديث واستخدامه للأدوات والوسائل التكنولوجية الميسرة وما تحتاجه هي الأخرى من مستلزمات هندسية ومعمارية أساسية وجزئية في مجالات العيش والحياة.

3 ـ التكييف الهندسي المستقبلي لمشروع تحديث العلاقات الاجتماعية والانتاجية (الاقتصادية) على ضوء المتطلبات الوظيفية الجديدة التي انغمر بها المجتمع العربي المعاصر.

4 ـ قياس حجم التطور الديمغرافي العربي مع نهايات هذا القرن والمراحل المستقبلية في القرن القادم مقارنة بما عاشته الأجيال العربية السالفة مع الأخذ بنظر الاعتبار وحدة المساحات (= الأرض واستخداماتها) بما يتلائم والزخم الوظيفي بما تستوعبه الحالات المجهولة خشية وقوع تصادمات بين ما يخطط له من جانب وما سيكون عليه الواقع العربي في المستقبل.

5 ـ مراعاة الظروف المناخية والبيئية والصحية في كل مدينة عربية، فما يصلح تنفيذه. من التخطيطات المعمارية في مكان لا يصلح بالضرورة في مكان آخر، واهمال بعض الحالات التطبيقية التي جرى تنفيذها عربيا بشكل عشوائي منذ خمسينات هذا القرن على وجه الخصوص.

6 ـ تحقيق القيم المعنوية والجمالية والمعيارية بما يتفق هندسيا ومعماريا مع الفوائد الاقتصادية والعوائد المالية المرتبطة بها.

7 ـ الوعي الجماهيري بالبيئة المعمارية العربية من خلال المدارس والمؤسسات التربوية والجامعية والاعلامية ... وتوضيح « المصطلحات » الخاصة بذلك ومدلولاتها.

8 ـ تشريع القوانين والتعليمات العامة والخاصة بتحديث العمارة العربية الاسلامية بعد المحافظة على المواريث المعمارية ... من أجل الوصول إلى الأهداف القومية.

9 ـ التخصيصات المالية المعتمدة لتنفيذ مجمل المشاريع أعلاه.

10 ـ امكانية الاستفادة من تجارب أوروبية متقدمة حافظت بعض الدول الأوروبية ولم تزل وستبقى تحافظ على مواريثها المعمارية المركزية مثل : امستردام ويورك وفينيسيا واكسفورد وهامبورك وروما وقرطبة واشبيلية وغرناطة. وباث وادنبرة.

المعايير العامة في الهندسة العربية المعمارية المستقبلية

ان جميع القواسم المشتركة في الوظائف المعمارية القديمة والتي تعد احد أبرز مظاهر الوحدة والتنوع في المدن العربية، لم تبق على ما كانت عليه، بسبب ديناميكية التطور وعوامل التغيير، ونتيجة لحالات الاهمال وعدم الصيانة، أو وصول البعض إلى درجة احتقار غالبية التراث والموروثات وبضمنها العمارة العربية[26] ... وكان للسياسات البلدية / المحلية والقرارات السريعة أثرها الكبير في تشويه ذلك الموروث الأصيل أو ازالته برمّته، أو تهجينه كالغريب أو تركه مهملا على مدى السنين فحدثت انشطارات وخروقات في طبيعة العمارة العربية وعشوائيتها، وبدأت تنفصل شيئا فشيئا درجة التفاعل والانسجام بين الوظائف والأشكال وبين المعايير والتصاميم، وبين المكونات والاجتماعية والانجازات العمرانية ...

ان من أبرز الوظائف التي لا بدّ للمدينة الحديثة ان تقدمها، هي : السكن والعمل والخدمات والتسلية ... وهي عناصر أربعة يجب على المجتمع (أي مجتمع يضم وحدات اجتماعية متمدنة ومتنوعة) ان يتحرك وظيفيا في مجالاتها بعد توفيرها كمستلزمات أساسية في الحياة، فتنمو بذلك درجة الكفاءة شيئا فشيئا وتتطور الانجازات مؤسسة علاقة قوية من البنيات التي تحدد أطر الوظائف المعلنة[27].

وعليه فان ما يهمنا من تحديد للمعايير المطلوبة هو معرفة درجة التفاعل والانسجام بين الوظائف والأشكال، أو بين الوظائف والتصاميم، أو بين الوظائف والمنجزات العمرانية للحياة المدينية ـ العربية، كما تفصح عنه تصوراتنا واخيلتنا الهندسية التي من خلالها تحدد الرؤية المستقبلية للموضوع في القرن القادم :

1 ـ وقبل كل شيء، هو تحديد درجة التوازن بين وظائف حياتنا العربية والتفاعل المكاني، وكيفية استخدام الأرض داخل المدن، وطبيعة تطور الوحدات الاجتماعية والبنى الاقتصادية في الوصول إلى درجة من الكفاءة والمنعة للوظائف الأساسية التي تقدمها المدن العربية.

2 ـ عملية الاستفادة القصوى من الموروث المعماري العربي الاسلامي سواء كان ذلك في جمالياته أم عناصره الوظيفية وتشكيلاته البيئية الأصيلة لبناء مستقبليات هندسية لها خصوصيتها العربية.

3 ـ ايجاد صيغ قانونية (بالنسبة للدولة) واجتماعية عرفية (بالنسبة للمجتمع)، وذهنية ثقافية (بالنسبة للفرد) ... صيغ تتناسب وروح العصر وحاجاته وخدماته وتوسعاته وديمغرافيته ... أي باختصار : وضع تصاميم وخطط جديدة تستفيد من الموروث الأصيل، وتطوره، لخلق فضاء عمراني عربي تنسجم فيه أصالة الهندسة العربية مع آليات العصر.

4 ـ اعادة التأهيل الحضري لبناء هندسة مستقبلية على أساس تحريك المحفزات الخاصة Private incentives Mobilizing بتوفير الأموال اللازمة واجراء التحسينات في العقارات المفردة طوعيا، ولكن يجب الا تقتصر العملية المستقبلية للهندسة المعمارية على ذلك فحسب، بل من الواجب ان تعتمد أيضا على القيم الاقتصادية بتحسين الوظائف العربية التي اعلنت عنها في المعيار الأول(28).

5 ـ ان الدراسات الهندسية المستقبلية الجارية على التجارب الحالية لاعادة التأهيل المعماري في أوروبا، هي مشاريع مرشدة Pilot Projects بدأت تلقي ظلالا من الشك حول المناظرات الجدلية التي تؤيد هدم الوحدات المعمارية القديمة واعادة بنائها، لان اعادة تأهيلها وفقا للمعايير المعاصرة ستكون مكلفة جدا فقد أثبتت التجربة الدراسية والتطبيقية في المانيا، وأشارت إلى ان تحديثا شاملا Modernization Thorough لنوعية تأهيل العمارة ... ممكنة عند 62 % فقط من كلفة انشاء ابنية حديثة(29).

ولكن ! ما يصلح للعمارة في المدن الالمانية قد لا يصلح بالضرورة لاعادة التأهيل للعمارة في المدن العربية الاسلامية.

6 ـ وعليه، فان العمارة العربية الاسلامية بحاجة إلى دراسات متنوعة ومركزة وتطبيقية لتنفيذ ضوابط مدونات البناء والصحة وأداء الوظائف المختلفة، فضلا عن فحص المكونات ونوعية الهياكل والمواد الانشائية وتأثيرات المناخ والبيئة والاستعمال ... والأساليب المعتمدة في الهندسة والموقع ودرجة التأثيرات التبديدية The Disruptive Influence على امتداد تواريخها الطويلة(30).

7 ـ فهم واستيعاب الصعوبات السايكولوجية التي يسببها التحديث الهندسي المعماري سواء على مستوى التأهيل أو التطوير، وقياس انعكاساته على الوحدات الاجتماعية في أداء وظائفها ... واحتساب قيمة الفوائد الموقعية Locational Advantages اقتصاديا بفقدان الاستثمار المتراكم في رأس المال الاجتماعي والخوف من محاذير التغيرات المادية والقيم المعنوية للملاكين والمستأجرين والمهنيين والحرفيين وسكنة الوحدات السكنية ... وكلها قد تؤدي إلى انعكاسات سايكولوجية تنتج عنها عوارض اجتماعية عامة بحكم الانتماءات المعقدة والارتباطات التي ليس من السهولة مغادرتها أو الانقطاع عنها(31).

8 ـ الحد من حركة الهجرة والانتقال الداخلي من الريف الى المدينة، التي كانت لها تأثيراتها المضادة على تطور القيم المدينية ـ الحضرية العربية (= التطور الاجتماعي العربي) وعلى تطوير الهندسة المعمارية ـ المستقبلية العربية (= التطوير الحضري العربي)،. وقد اثبتت التجربة السياسية في دواخل بعض البلدان العربية التي جرت فيها تحولات انية ومستعجلة في اقتصادياتها

الاشتراكية والمختلطة وتطبيقاتها العشوائية قصيرة النظر ازدياد في حجم التناقضات المريعة في النصف الثاني من القرن العشرين بتمزيق الأواصر الحضرية المدينية العريقة وتقاليدها الأصيلة ... والدخول في نفق مظلم من الشبكات الاجتماعية المعقدة، والتغيرات المدمرة للأنماط التنظيمية سواء على مستوى العمارة العربية وتنميطها أو على مستوى الكثافة السكانية وانفجاراتها ... كل ذلك قد خلق تأثيرا تبديديا The Disruptive Influence على الروابط القديمة التي كانت بحاجة إلى فصول زمنية يتدرج فيها التطور والتطوير معا[32]. في حين أفرز النصف الثاني من القرن العشرين قوى اجتماعية احتجاجية وطارئة وتتزايد ضغوطها على بناء هندسة عربية مستقبلية في النظرة والتطبيق. وقد كان وسيكون لذلك كله أيضا ازديادا متصاعدا لتبديد الموروثات التاريخية والوقوف حجر عثرة أمام الفكر التخطيطي فضلا عن تناقض في الوعي الجماعي، بالحاجة إلى الحفاظ على قرون من الاستثمار الحضاري والثقافي نتيجة للهجرة الداخلية المضادة لمشروع تأصيل هندسي عربي وهكذا أدت التغيرات الاجتماعية إلى تمزيق البنى والمنظومات الاجتماعية[33] القائمة في المدن العربية بظهور انماط اجتماعية جديدة وغريبة وطارئة.

لقد أثر ذلك كله على الأجزاء التقليدية والمدنية من البنية المعمارية العربية بتركز المهاجرين / قرب الفنادق والوكالات والمساكن الكبيرة ... فارتفعت الكثافات السكانية وتدهور المستوى النوعي البيئي وبروز ما يعرض بظاهرة تريف الأحياء القديمة Ruralization[34].

9 ـ المضاربة بأسعار الأرض نتيجة ندرتها وطبيعة الاستثمارات احدثت تغيرات في البيئة الحضرية التقليدية والفيزياوية بشكل كبير انعكس على تدهور المجتمع بولادة فئات جديدة من الملاكين والدلالين والمضاربين وتجار العقارات ... مؤثرا على البنية المعمارية للمدن العربية[35] وعليه فلا بدّ من وضع الحلول والمعالجات ازاء ذلك.

المقومات الأساسية في هندسة التصاميم المستقبلية

لا بدّ من الأخذ بنظر الاعتبار في بناء التصاميم الأساسية Master Plans عدة مقومات فيما يخص العمارة العربية ـ الاسلامية المستقبلية :

1 ـ فهم واقع كل مدينة وخصائصها في تقسيمها إلى منطقة وظيفية معمارية على ضوء التطورات والضرورات والحاجات والمتغيرات، دون اهمال أي مواضع مساحية تخدم السكان في مساكنهم وعملهم وتنقلاتهم وحاجاتهم إلى الخدمات في القطاعات الخاصة سواء كان ذلك في داخل المدينة أم على أطرافها. والأخذ بنظر الاعتبار الحالات الديناميكية بما يوفر القدرة المعمارية ـ الحضرية على استيعاب النمو السكاني وتطوراته.

2 ـ الاعتناء بالموروثات المعمارية القديمة بما يوفر المحافظة عليها أو استلهام خططها وأشكالها وجمالياتها وأصالتها في الهندسة المعمارية العربية المستقبلية، من أجل خلق نماذج نمطية ناجحة تتلاءم ليس مع البيئة العربية حسب، بل مع السايكولوجية العربية في الوحدات الاجتماعية بما يميزها في طراز العمارة وانسجاماتها التاريخية بين الماضي والمستقبل. والخروج بنماذج جمالية وشكلانية مبدعة تقضي على التشوهات القديمة وتحد من استيراد النماذج الغربية. فضلا عن ان الحفاظ على ما تبقى من المواريث المعمارية العربية الاسلامية سيخلق للمستقبل متاحف حيّة تساعد في تطور السياحة وبقية الخدمات. وستغدو لكل بيئة عربية خصوصيتها التراثية المعمارية.

3 ـ لا بدّ أن تتجانس الهندسة المعمارية مستقبليا، بما يتلائم والتنطيق Zoning أي حسب المساحة التي ستمتد العمارة إليها في كل مدينة عربية، وحساب الأولويات في تنفيذ المخططات فضلا عن دراسة التضاريس الكنتورية وطبيعة المناخ والحجم الديمغرافي لكل مدينة بما يوجب تلاؤم العمارة العربية ـ الاسلامية لذلك كله، فما يصلح من بناء عمودي في القاهرة مثلا لا يصلح الا البناء الأفقي في بغداد ... وهكذا يجب أن يتم التوازن ليس بين مدينة عربية وأخرى فحسب، بل بين العمارة المستقبلية ـ العربية ووظائفها المتعددة القادمة.

4 ـ ينبغي إلى تهندس التصاميم الأساسية في المدن العربية بهدف الفصل بين الوظائف والتخلص من التمازج الوظيفي وصولا إلى كفاءة في الانتاج العربي المستقبلي، وخلق أجواء صحية، وابراز جماليات متنوعة في المدن ... إذ لا بدّ من ايجاد مناطق سكنية منفصلة عن مناطق الخدمات وتنفصل كل من الاثنتين عن مناطق العمل ومناطق التسلية ... ويتم العزل بين هذه « المناطق » الأربع بانطقة خضراء وضمان الاتصالات السهلة ودون التبعثر[36].

5 ـ أما فيما يخص المناطق السكنية في المدن العربية. فلا بدّ ان تصنف تراتبيا حسب القياسات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع، كيلا تختلط الفئات الاجتماعية المتنوعة في بيئة واحدة، فتكثر الاختلافات وتزداد التباينات بفعل اختلاف الأمزجة وتباين المستويات الاجتماعية[37] ... كما تؤخذ كثافة السكان بنظر الاعتبار وعزل المناطق السكنية عن مسالك المرور الكثيفة ... وحبذا لو كانت هناك مواصفات معمارية ـ هندسية لكل واحدة به مراتب السكن سواء في التصميم أو الريازة أو الشكل العام ونظام الشوارع حسب طبيعة البيئة والأرض والأقاليم المورفولوجية سواء كانت جبلية مرتفعة أم متموجة أم سهلية أم ساحلية أم صحراوية ... الخ.

6 ـ ان العمارة العربية المستقبلية لا بدّ أن تدخل العصر التحليلي، فالمهمة الهندسية ـ العمرانية كأية مهمة انسانية لا يمكن ان تخلق الأساليب المدنية دون ان تنسجم مع

الحياة البشرية ودون الاستفادة مما تقدمه تجارب الشعوب الأخرى، وذلك بازدياد متطلبات العصر الجديد في عدة جوانب منها، التزايد العددي والمقتضيات الاقتصادية، والتعامل مع مواد بناء جديدة، والتبادل مع الأشكال العالمية الأخرى واستخدام التقنيات والصناعات المتطورة، والمشاريع المشتركة، والضرورات المناخية والجغرافية ... فضلا عن « الراحة النفسية » لما تقدمه بعض النماذج المعمارية في العالم من حالات دلالية (سيمنتكية) سواء في التنظيم أو الفن أو الهندسة أو السياحة. ان مهمة الدخول في العصر التحليلي الاستفادة والتأثر لا الاقتباس والاكثار من التشوهات.

7 ـ ان الموروث المعماري العربي يشكل مدرسة تخطيطية عظمى يمكن الاعتماد عليها، والاستفادة من وظائفها سواء في المساكن أو الأسواق أو الجوامع والكنائس أو الخانات والمدارس ... الخ. فمثلا يمكن الاستمرار في اتخاذ نمط السوق العربية التقليدية نموذجا ناجحا يلائم حياتنا العصرية. ان ابرز ما نحتاجه في هندسة عمارتنا العربية المستقبلية في القرن القادم :

1 ـ توحيد الطرز عربيا وانسجام البناء العربي مع البيئة العمارية.

2 ـ تحقيق الانسجام الوظيفي بين الوحدة العمارية الموروثة والمحيط الوظيفي العام.

3 ـ الكفاءة والأهمية الانتاجية لوحدة المساحة والموقع والفضاء العمراني.

4 ـ تحقيق الانسجام الجمالي بين الهيكلين العمراني والانساني.

5 ـ توفير المستلزمات الصحية وفق وظائف العمارة العربية ـ الاسلامية.

6 ـ خلق المناخ السايكولوجي بتربية أذواق الناس على الوحدات المعمارية التاريخية المستحدثة.

7 ـ تربية الأجيال الصاعدة على طبيعة التطورات العمرانية العربية في الماضي والحاضر، وموقعها من التطورات العمرانية العالمية لدى الأمم الأخرى.

8 ـ اصدار قوانين بلدية وسياحية ونمطية واثارية وتنظيمية وهندسية للارتقاء بالموروثات المعمارية العربية.

هوامش وملاحظات

(1) L. Grebler, **Urban Renewal in European Countries : Its Emergence and Potentials,** Pensylvania Univ. Press, 1964, p. 13.

(2) H. W. Richardson, **Urban Economics, Penguim Modern Economics Texts,** London, 1971, p. 127.

(3) William Benton, « Urban Renewal » in **Encyclopaedia Britannica,** Chicago, U.S.A., 1966, p. 893.

(4) لقد استفدت كثيرا في بناء هذا « المفهوم » من أفكار واراء.

G.H. Baily, **The Architectural Heritage**, Stanley Thornes Publishers Ltd, London, 1975; see also U. Schaflizel. « The Renewal of An Islamic Madina » in **Ekistics**, No. 280, Jan/Feb. 1980.

(5) ما استفدته من نتائج بعض رسائل الماجستير في الهندسة المعمارية أخص بالذكر : علي حيدر سعد، **التكامل العمراني للأجزاء التقليدية القديمة في المدينة العراقية**، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة التكنولوجية، بغداد 1990.

(6) Von Grunbaum, **The structure of the Muslim Town in Islam : Essays in The nature of Cultural Tradition**, London, 1955, pp. 75-158.

(7) F.S. Chapin, Urban Landuse Planning, 2nd ed., Illionis Univ. Press, Urbana, 1965, p. 310.

(8) Oleg Graber, « Cities and Citizens : The Growth Culture of Urban Islam » in Islam and Arab World. ed. by, B. Lewis, U.S.A. 1976, pp. 104-7.

(9) L. Grebler, op. cit., pp. 37-59.

(10) سيار الجميل، تكوين العرب الحديث 1516-1916 (الموصل، جامعة الموصل، 1991)، ص 353.

(11) المصدر نفسه، ص 355-398.

(12) For details, see, Andre Raymond, **The Great Arab Cities in the 16th-18th centuries: An introduction**, New York, 1984.

(13) Details in, Said Zuifica, «Alienation, Architectural relevance and Cultural in the Islamic City». **The Arab City: The Arab Urban Development Institution**, ed. by I. Serageldin and S. El-Sadek, Saudi Arabia, 1982, pp. 51-80.

(14) تحليلات واستنتاجات ـ اثر جولات ميدانية للباحثة.

(15) Cf. G.H. Blake and R.I. Lawless, **The Changing Middle Eastern City**, Croon Helm, London, 1980, p. 181.

(16) J.A. Everson, and B.P. Fitz Gerald, **Inside the City**, London, 1976, p. 147.

(17) خالص الأشعب، « أصالة المدينة العربية وامعايير المعاصرة لتخطيطها »، **آفاق عربية**، بغداد، أيلول / سبتمبر 1977، ص 37.

(18) عبد الباقي ابراهيم، « مقومات المدينة العربية : **التطور الحضاري للمدينة العربية والاتجاهات الحديثة لتخطيطها المؤتمر الأول لمنظمة المدن العربية**، بيروت، 1968، ص 188-192.

(19) Said Zulfical, **op.cit.**, pp. 22-6.

(20) G.H. Blake and R.I. Lawless, **op.cit.**, pp. 35-6.

(21) Jim Antoniou, **Islamic Cities and Conservation**, UNESCO press, Paris, 1981, pp. 56-7.

(22) مقارنات من خلال جولات ميدانية لبعض المدن العربية.

(23) قارن : سيّار الجميل، « المدينة العربية في العهد العثماني : نموذج الموصل : الديمغرافية التاريخية وخطط المدينة وموقعها من البنية الاقتصادية والتحولات الاجتماعية ابّان العهد العثماني »، **المؤتمر العالمي الخامس للدراسات العثمانية**، مركز سير مدي زغوان / تونس، 1992.

(24) لمثل هذا التحليل المورفولوجي نظريا، أشير إلى كتاب بارز ومهم لـ :

Roy Worskett, **The Character of Towns, Architectural**, London, 1969.

(25) انظر تفاصيل ذلك في :

G.H. Blake and R.I. Lawless, **op.cit., p. 178.**

(26) أحيل القارىء للتعمق في الموروثات المعمارية العربية إلى : t.w. Freeman Geography and —
Planning. London, 1958, pp. 59-63.
Said Zulfica, **op.cit., p. 56; and cf. J.A. Everson and B.p. Fitz Gerald, op.cit.,** p. 150.
Pedro Chalmento, «Market in Islamic held City» ed. by R. Serjeant, UNESCO, Selected papers from the Collaquium held at Middle East Center, Faculty of Oriental Studies, Cambridge, U.K., 19-23 July, 1976. pp.107-112.
Xavier de Planhol, **The World of Islam,** New York, 1959, pp. 21-4.
C. Cahen, «Ga-t-il eu des Corporations Professionalles dans le monde Musulman Classique Quelques reflexions» in **The Islamic City,** ed. by Hourani and Stern, Oxford, 1970, pp. 52-60.
(27) انظر : عبد الباقي ابراهيم، **المرجع السابق**، ص 207.
(28) S. Creer, «Urban Renewall and American Cities», in B. Merrile Series, M.I.T., 1965, pp. 30-7.
(29) H.W. Hamer, and S. Kratke, «Urban Renewal without Displacement. In Architecture In Progress» in **Internationale Bauausslellung,** Berlin, 1984, pp. 27-30.
(30) For details; see, A. Rapport, «Same Aspects of Urban Renewal in France» in **Town Planning Review,** vol. 37, Oct. 1966, p.217.
(31) M.A. Ibraheem, **Low Income Housing in Iraq,** (Unpublished ph.D. Thesis). Univ. of Stracthclyde, Glasgow, 1984. p. 36.
(32) من أجل التوسع في أبعاد ومخاطر هذه العوامل، انظر :
J. Tanghe, S. Vlaeminek and J. Berghoe, **Living Cities,** Translated by Ronald Southman, Pergamon Press, Oxford, 1984, p. 303.
(33) I. Serageldin, «Financing The Adaptive Reuse of Culturally Significant Areas» in **The Challange to our Cultural Heritage Why Preserve the Past ?** UNESCO Press, 1986, p. 69.
(34) Blake and Lawless, **op.cit.,** p. 181.
(35) H. Roberts, **An Urban Profile of the Middle East,** Croom Helm, London, 1979, p. 229.
(36) World Bank, **Housing, Sector Policy Paper,** Washington, D.C., 1975, p. 27.
(37) Brian T. Robson, **Urban Social Areas, London, 1975, pp. 26-9.**